المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الحادي والثلاثين

١ مايو (ايار) سنة ١٩٠٦ — الموافق ٧ ربيع الاول سنة ١٣٢٤

رجال المال والاعمال

فيلكس موارس

تذعر الحال احياناً الى الخام بعض الاوربيين الزاعمين ان امم المشرق منحطّة عنهم اوانها قد شاخت وقاربت الفناء ولن تقوم لها قائمة . فنورد لهم حجة على فساد قولهم الاسرائيليين الذين سكنوا بلادهم وتساووا معهم في الحقوق المدنية فانهم جاروهم او فانوهم في العلم والفلسفة والصناعة والتجارة . والحفنة الصغيرة من مسيحيي سورية ومسلميها الذين نزلوا البلاد الانكليزية منذ عهد قريب لاجل التجارة فانهم كادوا يقبضون على تجارة سورية كلها وعلى تجارة غيرها من البلدان . اما الاسرائيليون فامرهم مشهور ولا سيما اذا ذُكرت العلوم الفلسفية والاشغال المالية ببطأطيّ لهم كلّ اوربي لان ميزان المال في يدهم على قلة عددهم . وهذا شأنهم في كل بلاد تساووا فيها بغيرهم في الحقوق المدنية كما هو ظاهر في فرنسا والنمسا واميركا وكما هو ظاهر ايضاً في هذا القطر بعد ان توطد الامن فيه وروعيت حقوق الاجانب

لما انشأنا الفصول التوالية عن رجال المال والاعمال وذكرنا فيها الاوربيين والاميركيين الذين اغتنوا بجدهم وعملوا الاعمال العظيمة باموالهم وعدنا ان نستطرد الكلام الى اغنياء المشرق الذين يستحقون ان يذكروا مع اولئك العظام ولكن وجدنا امامنا عقبتين تعذّر علينا ازالتهما الاولى صعوبة الوصول الى الاخبار الصحيحة المدققة التي يمكن ايرادها ومن ذكرها فائدة للقراء . والثانية ان اكثر رجال المال لا يزالون في قيد الحياة والكتابة عنهم قد تُعدّ من قبيل التزلّف اليهم

وكان المرحوم فيلكس سوارس من الرجال الذين نعجب بهمتهم وكان يشرح لنا احياناً الاساليب التي جرى عليها في القيام بالاعمال الكثيرة النافعة التي عملها واعظمها كلها في رأيه البنك العقاري المصري الذي انشأهُ او شارك في انشائهِ سنة ١٨٨٠ لكي يقترض المال برهن عقاري وربحٍ معتدل . ومعلوم ان هذا البنك لم يفلح الاَّ بعد ان أُصلح الري في مصر وزاد ريع الاطيان وعلا ثمنها . فلولا الاحتلال الانكليزي والمنافع التي جنتها البلاد من اعمال المحتلين لكان شأنهُ ضعيفاً جدًّا الآن ان لم يكن قد افلس اما وقد خدمهُ السعد بما نال الاطيان والاملاك عموماً من ارتفاع الاسعار فاستفاد اهالي القطر منهُ فوائد لا تعدُّ واستفاد هو ايضاً وعاد بالربح الوافر على مؤسسيهِ فان السهم من اسهمهِ يساوي الآن نحو ٨٠٠ فرنك والمدفوع من ثمنهِ الاصلي ١٢٥ فرنكاً لاغير . ومتى ذكرت الاعمال النافعة التي استفاد منها هذا القطر وجب ان يذكر البنك العقاري في مقدمتها

وتلوهُ شركة الدائرة السنية التي حلَّت محل الحكومة المصرية فباعت اطيان الدائرة السنية لاهالي القطر بالتقسيط بعد ان عينت لها اسعاراً محدودة واوفت الدين الذي كانت تلك الاطيان مرهونة عليهِ واقتسمت الربح الباقي بينها وبين الحكومة فارتفع ثمن سهمها العادي من ٥ جنيهات الى نحو ٢٨ جنيهاً وسهم التأسيس من جنيه الى ١٨٠ جنيهاً

ومما يذكر من اعمالهِ الكبيرة التي اسسها او شارك في تأسيسها معمل تكرير السكر في الحوامدية الذي انشئ سنة ١٨٨٢ قصد تكرير السكر المصري بدلاً من ارساله الى اوربا ليكرَّر فيها ثم اعادتهِ مكرَّراً الى القطر . وسكة حديد حلوان التي أُخذت ادارتها من الحكومة ونقلت محطتها من قرب القلعة الى ما بين دواوين الحكومة في باب اللوق . وسكة حديد الشرقية التي بيعت لشركة سكة حديد الدلتا الضيقة . وشركة مياه خلنطا . والبنك الاهلي المصري والبنك الزراعي وشركة كوم امبو وغير ذلك من الشركات العمومية والخصوصية

وقد يُظَن لاول وهلة انهُ لم يكن يعمل عملاً الاَّ وهو عالم بمقدار ما يناله منهُ من النفع . وهذا خطأٌ كما تدل اعمال كثيرة عملها وهو لا يرجو منها نفعاً لنفسهِ بل يحسب ان منها نفعاً عامًّا للبلاد . مثال ذلك سكة حديد حلوان فان محطتها في مصر كانت قرب القلعة فكان الوصول اليها متعذراً او يدفع الراكب اجرة مركبة توصلهُ اليها قد تزيد على اجرة سكة الحديد فاتفق هو وشركاؤهُ مع الحكومة على نقل محطتها الى قرب دواوين الحكومة واهتمَّ باصلاح حلوان وترغيب الناس في سكنها لطيب هوائها فصارت اضعاف ما كانت عليهِ ولا نبالغ اذا قلنا ان اربعة اخماس المباني في حلوان بنيت بعد ان اهتمَّ صاحب الترجمة بها .

وغني عن البيان ان ربحهُ السنوي وربح شركائهِ من تلك السكة بقي دون اللطيف لاننا لانتذكر ان الارباح بلغت في وقت من الاوقات خمسة في المئة وكانت اسهم الشركة غالباً دون ثمنها الاساسي وبقيت على ذلك الى ان باعتها لشركة سكة حديد الدلتا بصفقة رابحة

ومن قبيل ذلك معمل تكرير السكر في الحوامدية فانهُ تعب على انشائهِ هو وشركاؤهُ تعباً عظيماً ولم يربحوا منهُ ولا لوم عليهم ولا تثريب لان الاعمال الصناعية ربحها قليل لمحدود بسبب المناظرة الشديدة ولا يتوفر الكسب الاَّ من الاعمال الصناعية الجديدة التي لا مناظرة فيها . وبقيت مكاسب هذا المعمل اقل من القليل الى ان بيع لشركة اخرى .

ومن هذا القبيل ايضاً حفر ابئر الارتوازية في طنطا وتوزيع الماء منها على منازل السكان فان الماء خرج وطعمهُ مخالف لطعم ماء النيل الذي يستقيهِ السكان من الجعفرية فلم يقبلوا عليهِ ولذلك لم يكن الدخل من الماء يفي بنفقاتهِ وكان صاحب الترجمة مقتنعاً بجودة الماء وفائدتهِ حتى انهُ كان يجلب منهُ الى مصر ويشرب منهُ في بيتهِ ويبعث الينا جانباً منهُ لشربهِ في بيتنا فلم نستطبهُ مع علمنا انهُ نقي لاتشوبهُ شائبة . ونزلنا الى طنطا لنتحقق بانفسنا اقبال الناس عليهِ فوجدنا ان الذين استعملوهُ الفوا طعمهُ حالاً وصاروا يستطيبونهُ ولا يستطيبون ماء الجعفرية بازائهِ ورأيناهم يطنبون بمدحهِ وسهولة استعمالهِ ورخص ثمنهِ فرجعنا وبشَّرناهُ بذلك فقال اني على تمام الثقة من نجاح هذا المشروع اذا لقينا اقل مساعدة من الحكومة في منع الناس عن الاستقاء من ماء الجعفرية حينما يأسن . وذكرنا لهُ ان المسألة مسألة عادة فقط فاذا اعتاد الناس شرب ماء البئر الفوا طعمهُ ولم يعودوا يستطيبون غيرهُ فارتأى ان تنشأ حنفيات في المدينة يعطى منها الماء للفقراء مجاناً وقت انتشار الكوليرا رحمةً بهم فزادت الفة الناس لهُ وشاع استعمالهُ فزاد الربح منهُ وارتفعت اسعار اسهمهِ كما لايخفى

والشركة الاخيرة شركة كوم امبو سألناهُ يوماً عما اذا كانوا عازمين على طرحها للاشتراك العمومي فقال كلاَّ لاننا غير واثقين من نجاح هذا المشروع حتى الآن ونخشى ان تزيد نفقات الري هناك على ما يمكن ان ينتج من الارض فلا رأي لنا في اشراك الناس بعمل قد تكون منهُ خسارة عليهم

ومع اقدامهِ على الاعمال العظيمة لم يكن يقدِّر لها النجاح الذي نجحتهُ كما تدل كل الاعمال الكبيرة التي عملها . فالدائرة السنية وهي من اعظم الاعمال التي كان لهُ اليد الطولى فيها لما وصل السهم منها الى سبعة جنيهات قال صريحاً انها تجاوزت الثمن الذي تستحقهُ فقيل لهُ ان كبار مزارعي البلاد ادرى منهُ بهذا الامر وهم متهافتون على مشترى هذه الاسهم ولكنهُ كان

معتقداً صحة قوله ولما بلغ ثمن السهم عشرة جنيهات قيل لهُ في ذلك فقال لا اعلم فقد اضعت قوة الحكم . ولكن كانت اسعار الاطيان قد اخذت في الارتفاع فلم يعد حكمهُ السابق ينطبق على الاحوال الحاضرة

وكذلك الاطيان واراضي البناء التي باعها ارتفعت اثمانها كلها ارتفاعاً فاحشاً لم يكن يقدرهُ لها حتى ان الذين اشتروها منهُ ربحوا منها اكثر مما ربح هو

وكان يتالم من انكار الجميل ومن تفسير الافعال على غير حقيقتها

عابهُ مرةً احد اصحاب الجرائد اليومية وكان قد استفاد من فضلهِ فائدةً كبيرة فوقف يفكر في الامر ثم قال ان المرء مطبوع على انكار الجميل . ولكن بدت على وجههِ امارات الالم الادبي الشديد . ولامهُ آخر واظهر عيوب عمل من اعمالهِ فقال ان فلاناً يرى هذه العيوب الطفيفة وينقد بها ولكن هل يدري كيف كان هذا العمل قبلما توليناهُ . ثم جعل يشرح لنا ما كان فيهِ من العيوب وما تمَّ فيهِ من الاصلاح فاستغربنا ان رجلاً عظيماً مثلهُ يهتم بانتقاد المنتقدين واتيًا لهُ استغرابنا ولكننا عدنا فتذكرنا ان هذا الضعف يبدو على اكثر الناس متى جاوزوا سن الكهولة

وكان جلوداً على الشغل ولو اقتصر على ادارة الاشغال بنوع عام . رأيناهُ مرةً في مكتبهِ بعد وفاة ابنهِ وكان مصاباً بزكام شديد فنظرنا اليهِ نظر الاستغراب فقال لا تستغربوا لاني لا اتسلى عما مرَّ بي الاَّ بالشغل

وكان طويل القامة نحيف الجسم يتأنى في كلامهِ ويبسط آراءهُ بالسهولة التامة في التعبير عن افكارهِ سواء كان بالعربية او الفرنسوية او الايطالية . يذكر الكليات كأنها مقدمات اوليةٌ ولا سيما حينما يبحث في المسائل المالية فلا يخفى مرادهُ تماماً الاَّ لعالم بهذه المسائل المزاول لها

وكان يفتخر بالبنك العقاري ويعدهُ اعظم اعمالهِ كلها لانهُ مدَّ الفلاَّح بالمال فاستطاع ان يشتري الاطيان وينتفي بها ولولا ذلك لانتقلت اطيان القطر الى فئة صغيرة من الاغنياء

وكان مغرماً بجمع التحف الصناعية وفي بيتهِ كثير منها كما في بيوت غيرهِ من اغنياء الاسرائيليين . ويذكر لهُ معارفهُ امورًا كثيرة تدلُّ على سعة صدرهِ . فصدهُ بعضهم حين الاكتتاب في اسهم البنك الاهلي وقال لهُ بلغني ان البنك سيعطي مرارًا كثيرة وادهُ الاكتتاب ببلغ كبير حتى ينالني منهُ شيء يذكر وليس عندي المال الكافي لادفعهُ للاكتتاب فقال لهُ اكتتب بالمبلغ الذي تريدهُ ولا تدفع شيئاً فنحن ندفع عنك . فاراد الرجل ان يكتتب بالف سهم فنظر اليهِ وقال لهُ اكتتب بخمسة آلاف او عشرة آلاف

وقصده آخر صبحة يوم من ايام الآحاد فقال لهُ اتيتنا في الصباح على غير العادة فهل من خدمة نقضيها لك . فقال الرجل نعم يا خواجه سوارس ولم يكن مرادي ان اتعبك بل ان اكلف الكاتب فلاناً لقضاء غرضي . فقال لهُ ما هو فاقضيهُ لك لان الكاتب ليس هنا الآن . فقال الرجل طُلب مني اليوم مبلغ كذا من النقود والبنوك كلها مقفلة فلا سبيل لي الى هذا المبلغ فاتيت بهذا التحويل لعلي استلف المبلغ المطلوب من بنككم فقال اهذا الكل تعال معي وسار معهُ الى حيث الصراف وقال لهُ اعطِ الخواجه فلاناً كل ما يطلبهُ منك

ومتى ذكر فيلكس سوارس او سعد سوارس يطلق اهالي العاصمة اسمهُ بامرين كبيرين الاول اقدامهُ على الاعمال العمومية العظيمة والثاني اهتمامهُ بالفقراء والتصدق عليهم . وتروى عنهُ نوادر كثيرة متعلقة بالامر الاخير تدلُّ كلها على انهُ كان من كبار المحسنين وبقي الى ان لفظ نفسهُ الاخير يهتم بالفقراء حتى قيل انهُ اوصى ذويهِ والذين حولهُ ان لا يصنعوا لهُ اكاليل الازهار لتوضع على نعشهِ بل يدفعوا ثمنها للفقراء . ويطلق خاصة اصدقائهِ اسمهُ بمزايا اخرى ايضاً كصدق الوعد وحب اشراك الغير في النفع والترفُّع عن الاتضاع من غفلة الغافلين ونحو ذلك من الاخلاق الكريمة مع البعد عن التظاهر بالغنى حتى انهُ قلما نظر راكباً مركبة فاخرة وغالب ما كان يرى ماشياً او في مركبة مأجورة ولكن ذلك لم يحط من قدرهِ ووجاهتهِ مثقال ذرَّة

وقد اهتم اهالي العاصمة بل اهالي القطر بمرضهِ الاخير ووفاتهِ اهتماماً شديداً وكان لجنازتهِ موكب منقطع النظر مشى فيهِ الامراء اعضاء العائلة الخديوية والقناصل كرومر ونظار الحكومة المصرية ووكلاء الدول الاجنبية وكل عظيم في هذه العاصمة وملأت اكاليل الازهار مركبات كثيرة وسير بجثتهِ الى الاسكندرية بقطار خاص فاحتفل باستقبالها ودفنها هناك كما احتفل بتشييعها من العاصمة وسيبقى اسمهُ منقوشاً في صفحات التاريخ كرجل من اصحاب الهمم الكبيرة ومن اكبر المحسنين

وكانت ولادتهُ سنة ١٨٤٢ وتوفي والدهُ وعمرهُ ست سنوات عن غير ثروة فربتهُ امهُ وشبَّ مع اخوتهِ في الاعمال التجارية والمالية وتوفي في الثالث عشر من شهر ابريل وترك ثروة تقدَّر بنحو مليون جنيه اوصى منها بمئة وعشرين الف جنيه لزوجتهِ ولكل من ابنائهِ الثلاثة وبثمانين الف جنيه لكلٍّ من بناتهِ الخمس وبما بقي لبعض المستخدمين وللاعمال الخيرية